مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية

المجلد 11 / العدد: 02 (2020)، ص340 353

الإنسان والمجتمع والمعرفة في ضوء فكر مالك بن نبي التربوي

Human and society and Knowledge In Malik bin Nabi's educational thought

د/ منير قندوز[1] ط.د/ أمين أحمد

[1]- جامعة محمد بوضياف المسيلة mounir.guendouz@univ-msila.dz

[2]- جامعة وهران2 Amineahmed218@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/08/12 تاريخ القبول: 2021/11/22 تاريخ النشر: 2021/12/28

ملخص:

يعد مالك بن نبي واحد من المفكرين الذين أولوا أهمية كبيرة لمفهوم التربية الاجتماعية، والتي تناولها في معرض كتاباته في مؤلفاته العديدة وأفرد لها مؤلفا خاصا حين عالجها بشيء من التفصيل في كتابه "ميلاد المجتمع"، حيث أعتبرها الجوهر الذي يتأسس عليها المجتمع وبها يستمر تواجده ويدوم، فهي تمثل ذلك الحيز من التجسيد لتلك القيم الروحية التي تؤسس لتواجد المجتمع التاريخي، كما تهتم بتكو ين الإنسان وإعداده نفسياوأخلاقياواجتماعيا من أجل مواجهة تحديدات الواقع من جهة وبناء أمة متطورة وقوية من جهة أخرى، وهذا كله في إطار أخلاقي وجمالي يستقي أساسياته من تعاليم الدين الإسلامي وشرائعه.

كلمات مفتاحيه: الإنسان؛ المجتمع؛ المعرفة؛ مالك بن نبي؛ الفكر التربوي.

Abstract:

Malik bin Nabi is one of the thinkers who attached great importance to the concept of social education Which he covered in his writings in his many books, and he singled out a special one for him when he treated it in some detail in his book "The Birth of Society". I consider it the essence upon which society is founded and by which its existence continues and lasts, it represents that space of embodiment of those spiritual values that establish the existence of historical society It is also concerned with the formation of the human being and

---

[1]-- المؤلف المرسل: منير قندوز، mounir.guendouz@univ-msila.dz

preparing him psychologically, morally and socially in order to face the reality determinations on the one hand and build a developed and strong nation on the other hand.All this in an ethical and aesthetic framework that draws its fundamentals from the teachings of the Islamic religion and its laws.

Keywords: human; society; knowledge; malek ben nabi; educational thought.

مقدمة :

إن دراسة التربية وما يلحقها من فروع وجوانب تدخل جميعها ضمن مواضيع العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تعبر عن أوسع العلوم مجالا وأبعدها أفقا وأكثرها غموضا وأدقها تعقيدا، ولذلك تختلف حولها الرؤى وتتعدد حولها التعريفات والاجتهادات والتفسيرات من مدرسة إلى أخرى، ومن مفكر لآخر عبر المكان والزمان، فلا نجد تعريفا جامعا أو تفسيرا موحدا يلتزم به الجميع، فالاختلاف والتعدد وارد أصلا في طبيعة هذه العلوم، فكما أختلف الفلاسفة والمفكرون في وضع تعريف واحد للتربية، اتفقوا على تعريفات عدة متنوعة، كان كذلك اختلافهم وتباين أفكارهم وتناقضها حول النظريات والأسس التي تكون سببا في وجود التربية، فبعضهم أعتبر البيئة عنصرا هاما في العملية التربوية باعتبارها شرط ضروري لا ينبغي التنازل عنه، ومنهم من أعتبر الدين ركيزة أساسية في أي عملية تربوية، كما أشار إلى ذلك أفلاطون من خلال الفلسفة المثالية، وأبو حامد الغزالي، وابن خلدون وابن باديس.(الجعفري، 2010، ص32)

ويعد مالك بن نبي عتبة فارقة في تاريخ الفكر التربوي الإسلامي بوجه عام والفكر الجزائري على وجه الخصوص، حيث صاغ نظرية شاملة تهدف لإقامة مشروع حضاري كبير مبني على أسس ومقومات تراثية قيمية أصيلة، حيث ركز جل اهتماماته الفكرية على إصلاح الفرد والمجتمع من خلال تبيان دورهما الأساسي في بناء الحضارة. ولأجل تحقيق هذه الغاية الإصلاحية توجه إلى التربية، باعتبارها منهج للتثقيف والتوعية والتغير والتجديد الحضاري، فالتربية هي عملية تمس كل مناحي الحياة، الإنسان من حيث هو كيان نفسي أخلاقي يحتاج إلى التنشئة والتهذيب بغرض تحقيق عملية التكيف مع الواقع من جهة؛ ومن حيث تحقيق عملية التغيير على مستوى العالم من جهة أخرى، ثم المجتمع باعتباره الحاضن والضابط لهذا الإنسان، فهو يمده بالقيم والسلوكيات الواجب انتهاجها، ليبرز في الأخير دور القيم الأخلاقية في مجال العلم والمعرفة، كل هذا بمحرك من الدافع الروحي الذي يستمد طاقته من الدين الإسلامي.

وقد ركز المفكر الجزائري مالك بن نبي على مفهوم التربية الاجتماعية التي عالجها بشيء من التفصيل في كتابه "ميلاد المجتمع"، حيث أعتبرها الجوهر الذي يتأسس عليها المجتمع وبها يستمر

تواجده ويدوم، فهي تمثل ذلك الحيز من التجسيد لتلك القيم الروحية التي تؤسس لتواجد المجتمع التاريخي، كما تهتم بتكوين الإنسان وإعداده نفسيا وأخلاقيا واجتماعيا من أجل مواجهة تحديدات الواقع من جهة وبناء أمة متطورة وقوية من جهة أخرى، وهذا كله في إطار أخلاقي وجمالي يستقي أساسياته من تعاليم الدين الإسلامي وشرائعه، وسنحاول في هذا البحث أن نقف على ثلاثية الإنسان والمجتمع، والعلم والمعرفة التي أختص بدراستها مالك بن نبي في معرض حديثه عن التربية.

أولا- الإنسان:

أولى مالك بن نبي عناية بالغة بالإنسان في معالجته لمشكلات الحضارة، انطلاقا من قيمته ودوره في التاريخ، وباعتباره الأساس الذي من خلاله تنطلق الحضارة في مراحلها الثلاثة، حيث يكون في البداية ساكنا خامدا ثم عنصرا حضاريا فعالا، أو جزئيا محروما من كل قوة دافعة عندما تبلغ هذه الأخيرة نهايتها المحتومة، وهي مراحل متدرجة تعبر عن حركة الإنسان حينما يستغل ما بين يديه من عنصري التراب والوقت. (سعود، 2006، ص 120)

إن حركة الإنسان وتغيرها تكون انطلاقا من قدرته على استغلال الإمكانيات المادية المتاحة وهذا بدافع من الكوامن النفسية والروحية الموجهة له، وتحديد طبيعة هذا الإنسان تكون من خلال معرفة مكانته داخل السياق الحضاري، فهو إنسان خام وساكن في بداية النشوء الحضاري، ومبدع وفاعل، قادر على التغير في ذاته ومن حوله في طور التقدم الحضاري، لينحصر نشاطه وينحدر مع السقوط الحضاري.

ويمثل الإنسان الوحدة المكونة للمجتمع، ومن المعلوم أن أعظم التغيرات وأعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية (بن نبي، 1986، ص 80)، ولا يستطيع المسلم أو غير المسلم أن يغير ما حوله إن لم يغير ما بنفسه أولا، فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها قانونا إنسانيا وضعه الله عز وجل في القرآن، وسنة من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر. (بن نبي، 1991، ص 59)

فالإنسان هو العنصر والجوهر المكون للمجتمع، حيث العلاقة بينهما طردية، تتأسس على الجوهر الإنساني، الذي من كوامنه الأساسية النفس، ولما كانت كذلك كان لزاما من أجل تحقيق التغير الحضاري المنشود، أن نؤسس فكرة التربية على إصلاحها من خلال التركيز على تنمية أبعادها المختلفة، والقضاء على كل العوارض والمعوقات التي تحول دون ذلك.

ولأجل تحقيق الفعالية الإنسانية وبناء مجتمع حضاري، وجب التركيز على التربية الموجهة إلى الإنسان باعتباره الأساس الذي يقوم عليه المجتمع، وتتجه هذه التربية إلى النفس بوجه خاص، لأنها

قوام الإنسان وبها يتميز عما سواه من الكائنات، والثقافة بمعناها الواسع هي الدافع إلى إصلاح النفس، لأنها تقوم على تغير الفكر والتصور اتجاه الواقع، يقول في ذلك مالك بن نبي: ((لا تكتمل ثقافة الإنسان إلا بتحقيق أربعة أشياء: المبدأ الأخلاقي، وذوق الجمال، والمنطق العملي، والعلم أو الصناعة، وهي كفيلة بجمع شروط الفعالية)). (بن نبي، 1979م، ص 152)

ولعل الترتيب الذي أقامه مالك بن نبي على هذا الشكل لم يكن جزافا وإنما ترتيب قائم على الأوليات القيمية التي ينبغي للإنسان التركيز عليها، فالأخلاق باعتبارها العلم الذي يتجه إلى تقويم السلوك، فإنها تمثل الأساس الذي من خلال يتم تحقيق التغير الحضاري المنشود، فارتباطها العضوي مع المناحي العديدة للحياة، وتمثلها في الإنتاج والإبداع وتغيرها للفرد والجماعة، جعلها اللبنة الأساسية التي ينطلق منها كل مجتمع يبتغي التقدم.

والأخلاق التي دعا إليها مالك بن نبي تتخذ من العقيدة الإسلامية منطلق لها، فالإسلام جاء ليتمم مكارم الأخلاق، فقد حث من خلال تعاليمه إلى التحلي بالصفات الحميدة التي تجعل الإنسان المسلم في وفاق مع نفسه أولا من خلال راحة ضميره، ومع غيره ثانيا في جانب تنظيم المعاملات على أساس من الإخاء والمساواة والتضامن، وحب الخير للآخرين بنفس الدرجة التي نحبه لأنفسنا.

أما عن تنمية الحس الجمالي، فيقول: ((ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية ويجب إعداده حتى يصبح المنبع الذي تنبع منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع، والواقع أن أزهد الأعمال لها صلة كبرى بالجمال، فالشيء الواحد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تنطبع بالجمال، أو تنضج بالقبح، ونحن نرى أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان وفي عمله وفي السياسة التي يرسمها لنفسه، بل حتى في الحقيبة التي يحمل فيها ملابس سفره، ولعل من الواضح أننا أصبحنا نفقد ذوق الجمال، ولو أنه كان موجود في ثقافتنا، لسخرناه لحل مشكلات جزئية، تكون في مجموعها جانبا من الحياة)). (بن نبي، 1986م، ص 92)

فالفكرة الجمالية تنطبع على الوجود وتغير ملامحه، وليس هناك شيء أدل على ثقافة الإنسان من طرق تعامله مع الواقع، وتلك اللمسة الجمالية التي تبين رقي حس الذوق لديه؛ وغياب التربية الجمالية في واقعنا اليوم يدل على خطأ في تصورتنا المعرفية وتدني كبير لأفكارنا، حيث يتجلى عجزنا في التعامل مع ذواتنا ومع العالم في ذلك المقدار من القبح الذي يحيط بنا دون أن نحاول أن نغير من تركيبته ولو النزر القليل.

فالجانب الجمالي وتذوقه وتربيته أمر ضروري لحياة الإنسان على هذه الأرض، لأنه يسمو بالإنسان فوق حيوانيته، ويجعله يعيش وسط إنسانيته فيكون مرهف الحس، رقيق الشعور، لا متبلدا ولا

جامدا بل حسن الذوق والتذوق، يمكن أن يضيف من لمسات الجمال الشيء الكثير، فيعطي لحياته معنى ولحياة المجتمع كله ذوقا رفيعا (الشربيني، 2005م، ص 29)

ويلح بن نبي في المحور الثالث على الفعالية وهي ربط منطق الفكرة بمنطق العمل من أجل القضاء على العقم الاجتماعي، أو- السلبية المجتمعية - التي تجعل من المسلم يتكلم عن مبادئ القرآن الكريم ولا يعيش وفقها، ويتم ذلك تحديدا في معرض المقارنة بين الجيل الأول للدولة الإسلامية، والجيل المعاصر (عبادة، 2007م، ص 111)

إن منطق العمل يظهر من خلال التخلي على مركزية الكلام، والاتجاه إلى الواقع بغرض تغيره، لأن النتائج العينية وحدها من تبني الحضارة، وليس ذلك الزخم من التصورات الجوفاء التي تتردد دون حاجات عملية تجسيدية على الأرض، وإن كان المسلم لا يشك في عقيدته السليمة، إلا أنها فقدت بريقها نتيجة اهتمامه بمنطق الشكل وإهماله للمضمون العملي، يقول في ذلك مالك بن نبي: ((إن المسلم لم يتخلى مطلقا عن عقيدته، فلقد ظل مؤمنا متدينا ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جاذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي، وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، إنما من المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الايجابية وتأثيرها الاجتماعي)). (بن نبي، 2002م، ص 54)

أما بالنسبة للمحور الرابع فيرى مالك بن نبي أن مفهوم "الصناعة" لا يقصد بها ذلك الحيز الضيق المتعلق بالإنتاج فقط، وإنما هو معنى شامل لكل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم المعرفية، حتى أبسط الأعمال التي قد يقوم بها الإنسان مثل رعاية الأغنام، هاته الأخيرة التي يقول عنها أن الدول المتقدمة مثل فرنسا تخصص لها مدرسة، على خلاف ما هو موجود عندنا، ولعل الفارق قد يظهر لما ننظر إلى طريقة رعي كلاهما، والنتائج المادية والنفعية المختلفة بين كليهما. (بن نبي، 1984م، ص 88)

بالإضافة إلى هذه العناصر الأربعة؛ فإن مالك بن نبي يؤكد في مواطن كثيرة من كتاباته ضرورة إيلاء الأهمية لتهذيب النفس الإنسانية، والوقوف على حاجاتها البيولوجية، وتوجيهها توجيه يليق بمقامها المتعالي عن الحيوانية، حيث يقول في ذلك: ((فالفكرة الدينية تتولى إخضاع غرائز الفرد إلى عملية شرطية تمثل ما يصطلح عليه علم النفس الفرويدي بـ (الكبت)، وهذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، ولكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، فالحياة الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة لم تبلغ ولكنها انضبطت بقواعد نظام معين، وفي هذه الحالة يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة المفطور في جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى مقتضيات روحية طبعتها الفكرة الدينية في نفسه)). (مالك بن نبي، 1986، ص 75)

فالكبت من حيث هو إرغام النفس على عدم إظهار مطالبها الغريزية والجنسية، هو سلوك قويم لأنه يبين قدرة الإنسان على تنمية ملكة التعقل لديه في مقابل مطالب الجسد التي تبتغي التحقق، لكن الكبت لا يتخذ معنى السلبية مع مالك بن نبي؛ بل هو لأجل تأجيل المطالب فقط إلى حين توفر الوضع المناسب والشرعي لظهورها.

كما يرى بن نبي أن الإنسان لا يفقد من نفسه معنى الخير مهما أحاطت به دوافع الشر، لأن الأصل في قلوبنا الخير والشر مجرد عارض، فمن يرفع راية الخير قد يسد حاجة تشعر بها الإنسانية في أعماقها، ويحقق لنفسه مكانا كريما في المجتمع العالمي، وفي هذا المجال يمكن أن يكون مجالنا إذا حققنا في سلوكنا معنى الآية الكريمة: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (آل عمران: 104م)، فإذا ما تحققت هذه الآية في سلوكنا العام نكون قد لقينا في الخريطة الأيديولوجية لونا يجعلنا من أكرم سكان العالم، فالخير حسبه شرط لدخول المجتمع العالمي وهو حاجة من الحاجات الإنسانية الكبرى (مالك بن نبي، 1979، ص ص 216، 217)

ويولي مالك بن نبي أيضا اهتمام بالجانب النفسي لدى الإنسان، وهذا من خلال محاربة إحدى الشعورين المتناقضين والمنتشر لدى الكثير من مجتمعات البلاد الإسلامية، الأول التساهل إلى حد الاتكال والتكاسل وترك الجهد والعمل، والثاني تعظيم الأمور إلى حد اليأس والاستحالة؛ مما قد يؤدي إلى التوقف التام والركون والعجز، وفي هذا يقول: ((ومن وجهة النظر النفسانية يجب أن نبين أن خط السير لنشاطنا الشخصي أو الجماعي يجب أن يمر بين ذهانين يبدو أنهما ينتابان سائر البلاد الإسلامية وهما ذهان الشيء السهل الذي لا يستدعي أي مجهود، والذي يستميلنا إلى الكسل، وذهان الشيء المستحيل الذي يجعلنا نحكم مسبقا ومن أول وهلة بأن النشاط فوق مستوى وسائلنا، مما يفضي بنا إلى الشلل التام)). (بن نبي، 2006، ص111)

ثانيا-المجتمع:

المجتمع ليس مجرد جمع لعناصر أو أشخاص تدعوهم غريزة الجماعة إلى أن يتكتلوا في إطار اجتماعي معين. هذه الغريزة وسيلة لإنشاء المجتمع وليست سببا في إنشائه، إذ يضم المجتمع أكثر من مجرد مجموعة من الأفراد الذين يؤلفون صورته، يضم عدد من الثوابت التي يدين لها بدوامه وبتحديد شخصيته في صورة مستقلة تقريبا عن أفراده. (بن نبي، 1986، ص 11)

وبهذا يخرج مالك بن نبي على التصورات القديمة التي رأت في المجتمع ذلك التكتل الفطري المبني على عجز الأفراد عن تلبية حاجاتهم بأنفسهم، إن المجتمع هو جملة الثوابت التي تتكون وتنشأ عن تلك

العلاقات التي تربط بعضهم ببعض، تفاعل حتمي بين أجزائه يفرز لنا شبكة من القيم، وهو بهذا يشكل شخصية مستقلة على كل الأفراد المشكلين له.

إن الفرد هو المشكل الحقيقي للمجتمع، وبه يتحدد كيانه ويظهر، وميلاد المجتمع يكون من خلال ذلك التفاعل بين الكيانات السليمة التي تشكله، وبالأحرى أن المجتمع عنده هو: ((الجماعة الإنسانية التي تتطور ابتداء من نقطة يمكن أن نطلق عليها ميلاد، كحدث يسجل ظهوره شكل من أشكال الحياة المشتركة، كما يسجل نقطة إطلاق لحركة التغيير التي تتعرض لها الحياة، ويظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين أفراد جماعة معينة)). (بن نبي، 1986، ص 16)

والفرق بين المجتمع الحيواني والمجتمع الإنساني هو ذلك الفرق في طبيعة الأهداف التي تحرك كل منها نحو أفراده، فإذا كانت وظيفة المجتمع بصفة عامة هي حفظ كيان الفرد وتحقيق أهداف معينة له، فإن هذه الأهداف في مستوى الحشرات تتلخص في حفظ النوع، لكنها في مستوى الإنسان أكبر من مجرد حفظ النوع، لأن الإنسان يعيش لأهداف أخرى تتجاوز حفظ النوع إلى مستوى الارتفاع بالنوع من وجهة حضارية. (بن نبي، 1986، ص 25)

إن الإنسان يرتقي على مستوى التجمعات الحيوانية التي تنشد مجرد حفظ النوع والرغبة في البقاء، إلى التجمع للأجل غاية أسمى، وهي بناء التاريخ وتشييد الحضارة عن طريق بعث القيم الإنسانية وتنميتها، حيث تسعى جاهدة إلى تحقيق أهدافها السامية من خلال إعادة تفعيل الوظيفتان الأساسيتان التي أوكلت للمجتمع أن يقوم بهما:

الروح:

وهي الروح الدينية المبثوثة في المجتمعات الإسلامية، إنها ذلك الدافع القادر على تحويل الإنسان من مجرد شخص إلى فرد فاعل داخل السياق الحضاري الذي يتشكل من خلاله، وحدها الروح من تعبر عن عمق الإنسانية وتترجم رقي الإنسان في شقه الأخلاقي، فالتطور الاجتماعي يسير جنب إلى جنب مع تعميق روح الدين وترسيخها في النفوس، يقول في هذا السياق: ((إن العلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه، وتلدها في صورة القيمة الأخلاقية، فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية، والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنها حدث، ومن الوجهة الكونية على أنهما عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد)). (بن نبي، 1986، ص 56)

المادة:

والروح بدورها لا تتشكل إلا على المادة أي على الواقع الذي يجسدها، ويقصد بالمادة تلك العوامل الموضوعية التي تشكل جوهر الحضارة، فهي تساهم بشكل مباشر في توفير الجو الملائم لتنشئة أفراده، كما تعد العامل المهم الذي يحفظ استقرارها وحركتها، حيث يقول بن نبي: ((فإذا إرادة مجتمع وقدرته تضفيان صفة الموضوعية على وظيفة الحضارة، وهي جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتنمية الفرد، وهي نفسها تتموضع في شكل سياسة، وفي صورة تشريع يمثلان إسقاطا مباشرا لعالم الأفكار على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي)). (بن نبي، 1988، ص 43)

وإن كانت الروح تتمثل في الدين الذي يطبع الصفات الأخلاقية الحميدة على نفوس أفرد المجتمع، والمادة هي جملة العوامل المعنوية والمادية المساعدة على التحضر، فإن التربية لا تتحقق إلا من خلال تفعيل كلا الوظيفتين معا فبقاء الروح كمجرد فكرة مثالية غير قابلة لا تجسد عمليا تبقى خاوية بلا معنى، والمادة بلا روح، تجعل من الإنسان شيء مرتبط بعناصر الإنتاج والتصنيع دون أن تكون له غاية سامية ومقدسة لوجوده.

والمجتمع عند مالك بن نبي يمر بدورة حضارية تشبه ما يمر به الإنسان، من طور البداية والنشوء حيث الفطرة الخام، إلى طور الشباب والقوة، إلى طور الانحدار والتقهقر، حيث يقول: ((جمع خطوات المجتمع الجديد نحو عالم الأفكار أي نحو عمر الفكرة التي مرت عبر الأشخاص هذا؛ أي عبر عمر الشخص هكذا يتوصل الاطراد في المجتمع كما في الفرد حتى نقطة الارتداد والانكفاء، هنا تجمد الفكرة وتتجه المسيرة نحو الوراء إذ ينقلب المجتمع الإسلامي على أعقابه ليعود على أثر مراحل عوالمه الثلاثة)). (بن نبي، 1988، ص 40)

فالمرحلة الأولى أطلق على تسميتها بمرحلة ما قبل الحضارة، وفيها يكون المجتمع منغلق على نفسه، همه القبيلة التي ينتمي إليها، وتمتاز هذه المرحلة أيضا بالفقر فيما يتعلق بالعناصر المادية، أما على صعيد الأفكار فينحصر مجالها فقط في تلك القصائد المنتشرة على ألسنة شعرائها (المعلقات)؛ لذا كان المجتمع العربي في مرحلة الجاهلية بعيدا على السياسة والتحضر، حيث كانت تحدد الإمبراطورية البيزنطية من جهة الشمال والإمبراطورية الفارسية ومملكة الحبشة في الجنوب شؤونه، حتى جاءت الفكرة في غار حراء وظهر إشعاعها بكلمة اقرأ فمزقت هذه الكلمة ظلمات الجاهلية الحالكة، مشرقة بعالم جديد بالأشخاص ليبنى عالما ثقافيا جديدا تتمحور فيه الأشياء حول الأفكار. (مالك بن نبي، 1988، ص 38-39-40)

أما عن المرحلة الثانية؛ والتي فيها يبلغ الإنسان مجده وتحضره، فقد تميزت باندماج الفرد داخل الكيان الاجتماعي الذي يشكله، وأصبحت الروح الدينية الدافع للعمل والتشييد، فالغاية بعد أن كانت منحصرة في حيز القبيلة، والمصالح الفردية الضيقة، توجهت إلى رحابة الأمة وهذا تحت راية الخلافة الإسلامية، حيث لا مجال للتميز على أساس عرقي أو إلى انتماء خارج انتماء العقيدة الإسلامية، وفي هذا يقول:((وعندما بدأت عملية اندماج المجتمع الإسلامي في التاريخ تأسس عالم الأشخاص فيه على نموذج أصلي يتمثل بطائفة الأنصار والمهاجرين)) (مالك بن نبي، 1988، ص 41)، فالأنصار والمهاجرين كلاهما دخلا في كنف الأمة الإسلامية، وتحت راية وعقيدة واحدة.

ومن المؤكد أن الحضارة الإسلامية قد بنيت على عاملان مهمان، الأول هو الفكرة الإسلامية التي تمثل الأصل في التغيير، والباعث على التجديد والبناء، والثاني هو الإنسان المسلم الذي يمثل ذلك التجسيد للفكرة على الواقع، أو أنه السند المحسوس لهذه الفكرة على حد تعبير مالك بن نبي. (بن نبي، 2009، ص 163)

أما عن مرحلة السقوط والتقهقر، وهي المرحلة التي أطلق عليها "عصر ما بعد الموحدين" (ويبدأ عصر ما بعد الموحدين بسقوط الدولة الموحدية بعد هزيمة الناصر لدين الله الموحدي في موقعة حصن العقاب في الأندلس في 15 صفر 609هـ، وقد اعتبرت هذه الموقعة نذيرا بنهاية قوة المسلمين بالغرب والأندلس على السواء كما يقول مؤلف تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، إذ سقطت الدولة الموحدية التي أنشاها عبد المؤمن بن علي سنة (542هـ- 1130م) بعد أن بايعه المهدي بن تومرت اثر سقوط الدولة المرابطية ثم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (1163- 1184). (بن نبي، 1988، ص 47.)

وعصر ما بعد الموحدين هو العصر الذي واكب حياة العلامة ابن خلدون، فقد سجل فيه انقلاب شامل للقيم الإسلامية، حيث حلت السلطة العصبية محل الحكومة الديمقراطية المبنية على الشورى في ظل الخلافة الإسلامية العادلة، فخلقت بذلك هوة بين الدولة والضمير الشعبي، وهنا فقد الإنسان المتحضر تدريجيا همه الحضاري وعجز مع الوقت عن تطبيق مواهبه وإبداعاته الخاصة على التراب والوقت، وبذلك دشنت الحضارة نهايتها: ((منذ الحين الذي فقدت في أساسها قيمة الإنسان، أي شعورها في معنى الإنسان)). (بن نبي، 2002، ص ص 35، 36)

إن مجتمع "عصر ما بعد الموحدين" يتميز بأنه مجتمع متفسخ، استولت عليه الجراثيم والأمراض وتكاثرت مع الزمان، فهو لم يعد يقدر على ردعها لأن جهازه المناعي قد انهار. ولما كان الهدف من التغيير الاجتماعي عنده هو بناء حضارة؛ فإن الهدف كي يتحقق عند إعادة بناء الحضارة يتضح في أن القضية في هذه الحالة ليست تبديل بناء حضاري ببناء حضاري، ولا هي قضية سد فراغ حضاري تعيشه

شعوب العالم الإسلامي، وإنما هي تحديد الداء الذي يشكوا منه هذا العالم من منظوره التاريخي ليس إلا. (السعد، 1997م، ص 174)

يفصل مالك بن نبي بين نوعين من الأفكار، الأفكار القاتلة والأفكار الميتة، الأولى أقل خطورة من الثانية، لأن الأولى تبقى منسجمة مع العادات، ويبقى مفعولها واضحا وظاهرا لذلك يمكن القضاء عليها، أما الثانية فهي تنخر الكيان الإسلامي من الداخل، لأنها تمثل جملة الجراثيم الموروثة والتي تستطيع أن تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه، إنها أشبه بالسرطان الذي يخلق دفاعات جديدة مقاومة في كل مرة يظن أنه تم القضاء عليه. (مالك بن نبي، 1981، ص 130)

ولأجل تجاوز هذا الركود والانحطاط، وجب أن نولي أهمية إلى التربية والثقافة بوصفهما أسلوب حياة في مجتمع معين، أو أمة معينة من ناحية، ولا يتأتى هذا إلا بتنظيم الأفكار في المجتمع وهذا للدور الجوهري لهذا العامل، فالأفكار أما أن تكون سببا في تقدم المجتمع حضاريا أو أنها تكون سببا في الركود والفوضى والتخلف. (الأحرش، 2006م، ص 172)

يضيف بن نبي إلى هذا العامل، تربية أفراد المجتمع على تقديس الواجب والمسؤولية وهذا في مقابل الحق، لأنه بالواجب فقط يتم بناء الحضارة وتحقيق التقدم، أما الحق فهو مدعاة للاتكال والكسل، إذ أن: ((المجتمع الذي يرتفع وينمو فإن ذلك يعني أن لديه رصيدا من الواجبات فائضا على الحقوق)) (بن نبي، 1979، ص31) وبالتالي: فإن الواجب من أهم المبادئ الأخلاقية التي يقوم عليها التغيير والبناء. فإذا أردنا تشكيل الإنسان الذي يحمل رسالة التغيير، لا بد من تربيته أولا على قيم الواجب، ذلك أن التصرف بدافع الواجب من ميزات الإنسان المتحضر الذي يرقى فوق درجة نوعه. (القريشي، 1989م، ص238)

إن التوكيد على الواجب ما هو إلا توكيد على قيمة العمل وتقديسه، لأن دون القيام بالواجب ستنهار الحضارة وتندثر، وتبقى حبيسة المطالب الحقوقية التي ترفع من حين لآخر، فيبقى بذلك حيز النشاط قليلا إذ ما قورن بالمجهود الذي يبذل في سبيل التشييد والبناء، ولعل ما وصلته الدول الغربية من تطور على صعيد تقدمها ورقيها؛ إنما هو ناجم عن إيلاء أهمية لفكرة الواجب وإتقانه.

وفي معرض حديثه عن الديمقراطية يرى مالك بن نبي أنها مظهر من مظاهر الحياة الراقية، إذ تمثل أسلوب حياة في المجتمع المتحضر، وتكمن دلالتها في قيمة الفرد كإنسان حر، وهي القيمة التي على أساسها تتحدد علاقاته بالآخرين، فتطبع سلوكه في المجتمع وفق مقاييس تتوافق مع ذاتيته، ولا تتصادم مع حرية الآخرين، بأن يدرك أن حريته ونشاطه لا يتمان إلا ضمن حرية ونشاط الآخرين. فحرية الفرد في المجتمع ليست شيئا فرديا بل هي مسألة اجتماعية تقتضي إدراجها ضمن عمليات

الضبط وحسن التوزيع، سواء في أبعادها السياسية أو الاقتصادية أو التربوية. والحرية بهذا المعنى – كما يقول جون ديوي - هي حجر الزاوية في التربية. (القريشي، 1989، ص 236)

والتربية على الديمقراطية هي تربية على الحوار والمشاركة، وتنمية ملكة النقد وتقبل الآخر في جو من الاحترام والتآخي بين أفراد المجتمع الواحد، تربية على الحرية الفردية غير المتطرفة والتي تتخذ من عدم المساس بشخصية الآخرين ضابط للقيام بها، وبهذا تصبح الحرية مطلب اجتماعي واجب تجسيده إذا أردنا الخروج من حيز الشمولية وطغيان الفكر المتزمت.

كما يركز بن نبي على ضرورة إشاعة المجتمع لثقافة التسامح والاتحاد، من أجل أن تذوب الخلافات والصراعات الإيديولوجية، فالفرد يمثل الجماعة، والجماعة هي الغطاء العام الذي ينضوي تحته كل الأفراد، حيث يقول مالك بن نبي في هذا الشأن: ((بالنسبة إلى مجتمع تاريخي، فإن دفاعه عن أسلوب حياته، هو دفاع عن شخصيته، وعن مبدأ إدماج أفراد في نطاقه، وتحديد علاقاتهم به بحيث يصبحون بمثابة التعريف بهم، كما يصبح مجتمعهم بمثابة المعرف بهم، فالإرغام الاجتماعي والموقف النقدي. سواء كان هذا الفرد واعظا في جمعية إرشاد، أو صحفي في جريدة أسبوعية، أو شاعرا هزليا أو فنانا مهتما بالجماليات، أو ناقدا أدبيا أو ناقدا سياسيا أو قاضيا عدليا هما المظهران الأساسيان لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية)). (مالك بن نبي، 2009، ص 84)

ثالثا العلم والمعرفة:

يرى مالك بن نبي أن تحقيق التقدم العلمي في المجتمع، يتم عن طريق توفر العنصرين السابقين اللذين تم معالجتهما أي الإنسان والمجتمع، فالإنسان من حيث هو الفاعل الأول في الإنجاز والبحث، يجب أن يتوفر على مؤهلات نفسية إبداعية تؤهله لأن يوكل له شرف هذا الدور، والمجتمع من حيث توفيره لجملة الظروف المناسبة والمشجعة قادر على الدفع بأفراده قدما نحو الرقي العلمي. فالتقدم العلمي إذن هو حصيلة تلاقي عنصر الإنسان مع المجتمع. (بن نبي، 1970م، ص 34)

ويستدل مالك بن نبي على ذلك بقوله، أن الثقافة الإسلامية وهي تشيع المناخ العقلي بكلمة (اقرأ) قد منحت التفكير حريته والعلم نموه، متبعة بذلك أساليب تربوية، كعمليات دعم للبناءات العقلية للفرد والمجتمع، فتنمية التفكير العقلي وتوفير فرص الإبداع والابتكار العملي، يتوقف إلى حد كبير على المناخ السائد في المجتمع، بما فيه من عناصر سالبة وموجبة. (بن نبي، 1981، ص 174)

فالمناخ الإسلامي الذي كان سائد في طور التحضر، شجع على العلم ودعا إليه، وهذا للمكانة المقدسة التي يحتلها في قلب المسلم، لأن قداسته من قداسة النص القرآني الذي ابتدأ بكلمة "اقرأ"،

كما أن الأحاديث النبوية كثيرة تدل على فضل العلم وطلبه، وإذا ما أردنا بحسب مالك بن نبي أن نعبر عن هذه الأحاديث في شكل أحكام نقول:

((العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

أطلبوا العلم ولو كان بالصين.

حبر العلماء أفضل من دم الشهداء)). (بن نبي، 2009، ص ص 189، 190)

ويحدد مالك بن نبي ماهية العلم بقوله: ((إن كل علم هو في جوهره الجهد الذي يبذله الإنسان من أجل اكتشاف ما يجهل)) (بن نبي، 1981، ص 167)، وهو بذلك يرى أن العلم هو كل جهد يقوم به الإنسان في سبيل أن يفك أسرار الكون ومجاهليه، فلا يقتصر العلم انطلاقا من هذا التعريف على المخابر العلمية والمؤسسات التربوية فقط، وإنما هو شامل لكل أنواع الجهد التي قد يقوم بها الإنسان في أي مجال كان في سبيل أن يعرف.

ومن هنا لا يختص العلم لديه على العلوم التقنية والطبيعية فقط، بل قد يشمل البحث العلمي، العلوم الإنسانية والاجتماعية مثل (علم الاجتماع، علم النفس، وعلوم التربية)، وهذا لمكانتها الجوهرية في توجيه مجتمعاتها نحو التقدم والازدهار، فهي تحاول القضاء على المشكلات الاجتماعية والنفسية مقترحة بذلك الحلول المناسبة لكل ظاهرة على حدا، هذا بالرغم أنها مازالت لم تبلغ الدقة التي بلغتها العلوم التقنية والمادية، ويقول في هذا الشأن: ((لم تبلغ العلوم الإنسانية بعد درجة تحديد مصطلحاتها العامة، كما حدث للعلوم الطبيعية، فإن في علم الاجتماع بعض المفاهيم التي تبدوا أحيانا غير محددة في ذهن القارئ في البلاد الإسلامية، حيث نجد أن اللغات المحلية لما تتمثل تملما المصطلحات الحديثة، وقد يؤدي تعقد المصطلحات إلى مناقشات أقرب إلى الطابع الأدبي منها إلى منطق العلم، كتلك المناقشة التي ثارت وتثور غالبا حول مصطلحي حضارة، ومدنية في البلاد العربية، بيد أن هذه المناقشات لا تعين على جلاء الموضوع، بل تجعله أكثر صعوبة)). (بن نبي، 1986، ص 9)

وهو بهذا يؤكد على أن المجتمعات العربية لم ترق بعد إلى مصاف الدول المتقدمة في مجال البحث في العلوم الإنسانية على شاكلة ما نجده في العلوم التقنية أيضا ولعل هذا يعود إلى عدم القدرة على ضبط المصطلحات، واستيرادها من الثقافة الأوربية التي أنتجتها، دون محاولة تكيفها مع ثقافة المجتمع العربي المسلم، لذلك بقيت غريبة ومحل اختلاف في الكثير من الأحيان.

ويلح مالك بن نبي على ربط العلم والمعرفة بالإطار القيمي الأخلاقي، لأن إهمال هذا الجانب قد يؤدي إلى إخواء الإنسان من جانبه الروحي، حيث تجعل منه مجرد مسخ يتجه إلى التصنيع والإنتاج، دون أن

يكون له غاية قدسية من عمله ونشاطه، يقول في ذلك: ((لقد أصبحت الثقافة الأوربية تسيل في المجرى العلماني الذي سيقودها إلى الموضوعية (أوجست كونت)، وبالتالي المادية الجدلية التي تمخض عنها ماركس، وبلغ الانفصال غايته في نهاية القرن الماضي، عندما زعم العلم بعد اكتشافاته المبهرة في ميدان البخار، ثم في ميدان الكهرباء، أنه يستطيع وحده الاضطلاع بسائر المسؤوليات في العالم، وعندما اعتقدت بكل بساطة البلاد المتحضرة بأنها تستطيع أن تؤمنه على مصيرها، فورطت بفضل تفوقها الفكري الإنسانية كلها في هذا الاعتقاد الساذج)) . (بن نبي، 1978، ص 73)

فالإنسانية انبهرت بتلك الفتوحات العلمية التي حققها ولا يزال يحققها العلم، لكن دون أن تضع في حسبانها أن الضابط الأخلاقي وحده من يوقف الإنسان عن استغلال الإنسان بالعلم، وربما هذا ما جر المعمورة إلى حروب ومآسي لا تزال تلاقي الشعوب ويلاتها إلى يومنا هذا؛ ويكفي هنا أن نشير إلى أن مالك بن نبي يعد من أوائل المفكرين الذين نبهوا إلى ضرورة ربط العلم والمعرفة بالأخلاق، وهذا ما لم يتفطن إليه الغرب إلا مؤخرا عبر فلاسفته ومفكريه، حيث اختصت بعض العلوم بدراسة هذا الجانب مثل البحوث في مجال البيوتيقا.

خاتمة:

نخلص مما تقدم إلى أن البحث في مجال التربية يجب أن يكتسي طابع العلمية والتخصص، وأن لا يبقى مجرد تحليلات تفتقر إلى التأسيس الواقعي. فهذا البحث نظرا لجوهريته كان لزاما أن يؤكد نجاعته من خلال اعتماده على ما يعيشه الأفراد من مشكلات اجتماعية حقيقية، بالإضافة إلى قدرته على استيعاب الموروث الحضاري بجميع تمثلاته، مع إدراك لجميع التحديات الراهنة والعالمية التي تتغير مع كل فترة.

وقد تبين لنا من خلال دراستنا للأفكار مالك بن نبي أنه قد استطاع من خلال تحليلاته الدقيقة التي قدمها، أن ينقل البحث في مجال التربية من العشوائية، إلى التخصص والعلمية، إذا وقف على أهم المشكلات التي عاشها في عصره، مركزا على وصفها وتحليلها، ومقترحا في نفس الوقت الحلول الناجعة التي قد تكون سبب في التخلص منها.

وإن اهتمامنا بهذه العوامل الثلاث ودورها في مجال التربية كان من أجل إظهار مالها من دور في سبيل التغيير الاجتماعي المنشود، فعن طريق تفعيلها تبرز الآثار المادية والمعنوية على المجتمع، وبإهمالها في المقابل تبدوا الآثار السلبية وتتجلى؛ وإن هذه العوامل مرتبطة فيما بينها، إذا يصعب الفصل بينها، أو تميزها عن بعضها البعض، إذ تعيش كلها وتنموا في كنف الروح الدينية وبواعث الإيمان.

قائمة المراجع:

1) القرآن الكريم.
2) الأحرش، موسى. (2006). إستراتجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، (ط1)، مخبر التربية والانحراف والجريمة في المجتمع، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
3) بن نبي، مالك. (1986). ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، سوريا: دار الفكر.
4) بن نبي، مالك. (1991). دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، سوريا: دار الفكر.
5) بن نبي، مالك. (1979). تأملات، دار الفكر المعاصر، سوريا: دار الفكر.
6) بن نبي، (1986). شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، سوريا: دار الفكر.
7) عبادة، عبد اللطيف. (2007). فقه التغير في فكر مالك بن نبي، (ط2)، الجزائر: مؤسسة عالم الأفكار.
8) بن نبي، مالك. (2002). وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، سوريا: دار الفكر.
9) بن نبي، مالك. (1984). مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، (ط4)، سوريا: دار الفكر.
10) بن نبي، مالك. (2006). مجالس دمشق، محاضرات ألقيت عامي (1972-1971)، سوريا: دار الفكر.
11) بن نبي، مالك. (1988). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسام بركة، أحمد شعبو، (ط1)، سوريا: دار الفكر.
12) بن نبي، مالك. (2009). القضايا الكبرى، سوريا: دار الفكر.
13) السعد، نورة خالد. (1997). التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، (ط1)، الرياض: الدار السعودية للنشر والتوزيع.
14) بن نبي، مالك. (1981). في مهب المعركة، (ط3)، سوريا: دار الفكر.
15) بن نبي، مالك. (1970). إنتاج المستشرقين، القاهرة: مكتبة عمار للطباعة والنشر والتوزيع.
16) بن نبي، مالك. (1978). بين الرشاد والتيه، (ط1)، سوريا: دار الفكر.
17) الجعفري، ماهر إسماعيل. (2010). الإنسان والتربية(الفكر التربوي المعاصر)، (ط1)، عمان: دار اليازوري.
18) سعود، الطاهر. (2006). التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، بيروت: دار الهادي.
19) القريشي، علي. (1989). التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، (ط1)، بيروت: الزهراء للإعلام العربي.
20) الشربيني، فوزي. (2005). التربية الجمالية بمناهج التعليم، (ط1)، القاهرة: مركز الشهاب للنشر.